الإسلام بين تقصير المسلمين وتلبيس الغربيين

الدكتور عبد القادر عبد السلام
جامعة الحاج لخضر باتنة

تمهيد:

إن الإسلام دين ودنيا، عقيدة وشريعة، عبادة وسياسة، جاء كاملا شاملا، صالحا لكل زمان ومكان، له أسسه الثابتة وفروعه المتغيرة.

أما أسسه الثابتة، فهي التي لم يقبض المولى سبحانه وتعالى روح نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن تولى بيانها دقة، وإحكاما وتفصيلا: " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"[1]، وهي الأسس التي لم يترك أمر الاجتهاد فيها لأحد، فبين أحكامها في كتابه العظيم، وسنة نبيه الكريم. " ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين"[2]

وأما فروعه المتغيرة فهي التي يمكن استمدادها واستنباطها من تلك الأصول الكلية، وهي التي يكون في مجالها الاجتهاد لمن استوفى شروطه من علماء الأمة، كما أنها توفر لرسالة الإسلام مقومات الخلود، ومقتضيات التجديد، والاستمرار لتكون أشد ملاءمة لاحتياجات البشرية.

كما توافقني الرأي في أن المسلمين استطاعوا في فترة من فترات تاريخهم، يوم أن كانت تجمعهم عقيدة واحدة، وكتاب واحد أن يكونوا سادة قادة ــ لمدة ثلاثة عشرة قرنا من الزمان، منذ البعثة النبوية وإقامة دولة الإسلام في المدينة المنورة بالإعلان عن "دستور المدينة" إلى سقوط الخلافة الإسلامية في 1924م ــ مدنوا الدنيا، وهذبوا العالم، وقعدوا القواعد للبشرية، وقرروا حقوق الإنسان في كل مكان، فكانوا بحق عند مستوى قول المولى سبحانه وتعالى: " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"[3]. وعند قوله: " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا.[4]

وإذا كان هذا الإسلام ــ صالح لكل زمان ولكل مكان ــ وهذه أسسه وأحكامه الثابتة ــ وفروعه المتغيرة ــ، وهذه أمته في مرحلة من مراحل تاريخها، فما الذي جعل هذه الأمة اليوم في مؤخرة الركب الحضاري، تعاني خللا استشرى كافة شؤونها ــ التشريعية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والأخلاقية، والثقافية، والإعلامية وحتى العقدية ــ أورثها وقعا مرا، وأضحى معها الإسلام في قفص الاتهام، ينعت بأشنع النعوت، وما يجد له من مدافع سوى صيحات من هنا وهناك، ممن لا يزال الإيمان ينبض في عروقهم، ولا تزال غيرة الإسلام تتقد مشاعرهم وتثير آلامهم.

إن الإجابة عن مثل هذا التساؤل ليست بالأمر السهل أو البين كما قد يتبادر إلى الذهن، ولا هي في متناول هذه الأسطر من هذا البحث، فهي قد تأتي على مجلدات، وقد لا تستوفى إلا بمراكز بحوث ودراسات لسنوات قد تطول ــ ولكن هي محاولة مني فضلت من خلالها الإطلالة على بعض الجوانب ــ التقصير من المسلمين، والتلبيس من الغربيين ــ ولا أزعم بذلك أني أضفت الجديد، وإنما هي محاولة تضاف إلى ما سبقها من محاولات، ظلت ولا زالت جميعها تصب في اتجاه واحد، وتنشد مبتغى واحدا، ألا وهو الدعوة إلى وجوب استفاقة هذه الأمة من غفوتها بل وقل من سباتها، وتحمل مسئولياتها الدينية والدنيوية، وصون الأمانة التي وضعها المولى سبحانه وتعالى بين أيديها، والالتفات إلى ما يحاك ضدها من دسائس ومؤامرات تقعدها عن النهوض بدورها الريادي.

هذا وأعود لأقول إن من بين الجوانب التي يمكن الجزم باعترائها تقصيرا من قبل المسلمين، وتلبيسا من طرف الغربيين، مما جعل هذا التقصير وذاك التلبيس ينعكسان بالسلب على الإسلام ليظهراه بعد ذلك بغير المظهر الذي يليق به ما يلي.

أولا: جانب الدعوة إلى توحيد الله

غني عن البيان أن دعوة الإسلام إلى توحيد الله، وإعمال أحكامه، لم تكن مقصورة على قوم دون آخرين، أو مكان دون آخر، وإنما هي دعوة، جاءت عالمية شاملة، موجهة إلى الناس كافة غير محدودة الزمان والمكان. فكما هي واجبة في حق الأوائل من هذه الأمة، فهي كذلك في حق من جاء من بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ــ متى توفرت شروطها وضوابطها ــ قال تعالى مخاطبا نبيه

محمد صلى الله عليه وسلم: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون"[6].

وفي موضع اخر يقول: "يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون"[7]، "انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون"[8].

واستجابة لهذا النداء، وتكريسا له، سخر المسلمون الأوائل وفي مقدمتهم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون، ومن تبع سيرتهم من قادة المسلمين، كامل إمكانياتهم المادية والبشرية لنصر العقيدة الإسلامية، والذود عنها ونشر مبادئها، واعلاء رايتها في العالمين، سواء كان ذلك عن طريق البلاغ اللفظي كما أنزلت على النبي محمد صلى الله عليه وسلم[9]، أو بإقامة الحجة[9] أو برفع راية الجهاد[10].

فاين نحن اليوم من هذا الواجب الذي لا يكاد يكون له ذكرا في البلاد الإسلامية، ولا حتى في البلاد الاجنبية، إذا ما استثنينا بعض الاجتهادات الفردية او الجماعية ـ والتي على قلتها لم تعد تروق الكثير ـ وماذا أعددنا من إمكانيات مادية او بشرية لأدائه، فحتى فريضة الجهاد لم نكتف بتعطيلها ـ بمسوغات ومبررات لا تسمن ولا تغني من جوع ـ بل وبذهب البعض الى الحاقها بما اصطلح على تسميته بالإرهاب ـ فأضحت الحركات التحررية في فلسطين، ولبنان، والشيشان، وأفغانستان، والعراق جماعات ارهابية بمفهوم الغرب-

وإذا كان هذا حالنا - إذ عجزنا حتى عن هش الذباب عن أنفسنا -، فإن أعداء الإسلام ـ الذين يعون معنى الإسلام ـ يترقبون له الفرصة، ويكيدون له المكائد، ويدسون له الدسائس، فلا يكاد يبدو اليه طرف، ولا تكاد تنمص ليه عين، فقد سخروا كامل امكانياتهم لإبعاد المسلمين عن عقيدتهم، وذلك بطريق بث الوهن والارتياب في تفكيرهم،والتشكيك بفائدة ما عندهم من عقيدة، وقيم وحضارة، تأتي عليهم حين من الدهر يفقدون فيه الثقة بأنفسهم، ويعاودهم الشعور بالنقص والضعف، مما يجعلهم يتطلعون الى البديل من مصادر غيرهم. فتنشأ الثقة والألفة رويدا رويدا بما يأتي من هناك فيكبر الإعجاب والتعظيم لآراء مفكريهم وعظمائهم، فيتمكن منهم التغريب ثم التنصير.[11]

هذا وإذا كانت حركة المسلمين قد توقفت عن الدعوة الى التوحيد ونشر رسالة الإسلام، فإن الدعوة الى التنصير ـ التبشير ـ لم تتوقف بل وزادت

ديناميكيتها وحركتها عند أعداء أمتنا. ففي القارة الأمريكية وحدها ما ينيف عن 9000 مركز للبحوث والدراسات الشرقية عامة، منها حوالي 50 مركزا تهتم بالمنطقة العربية فقط، مهمتها تتبع ما يجري فيها، وتحليله ومقارنته بأصوله العقدية والتاريخية، ثم مناقشته مع صانعي القرار الأسياسي، وفي ضوء ذلك توضع الخطط، وتحدد الاستراتيجيات، ووسائل تنفيذها وفي مقدمة دوافعها:

ــ التشكيك في العقيدة ومصادرها.

ــ تشويه حقيقة الدين الإسلامي في عقول المثقفين.

ــ حماية العالم الغربي من خطر الإسلام.[12]

وقد أغرى الغرب هذا التوجه بعد أن نجح في تنصير 15 مليونا مسلما أندونيسيا[13]. والخطة الموضوعة اليوم في 50 دولة أفريقية لأن ينقرض الإسلام بتؤدة ودهاء، وأن يعلن فجأة بأن القارة القديمة قد ارتدت كلها ونجح الأعداء في تنصيرها كما يقول الشيخ الغزالي رحمه الله[14]. وفي شأن التخصيصات المالية يقول: " ... خصصت لبحث أمثل طرق تنصير المسلمين والقضاء على دينهم وجمع لهذه الغاية ألف مليون دولار لعلها الخطوة الأولى في مشوار التنصير"[15].
وإلى جانب الحملات التنصيرية التي تظهر في الغالب في شكل مساعدات مالية، أو إعانات طبية، أو حملات تثقيفية أو ما شابه ذلك. فهناك الدعوة العلمانية إلى ضرورة الفصل بين الدين والدولة[16]، والربط بين الاسلام والمسلمين، في وضعهم المتدهور وصورتهم المنفصلة عن الإسلام[17].

ثانيا: جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[18] من أهم الواجبات وأخطرها التي تقع على عاتق المسلمين، و قد وردت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة صريحة في وجوب الدعوة إليه، وإلزام الأفراد والدولة به. ومن الآيات القرآنية التي وردت في هذا الخصوص، قول المولى عز وجل: " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"[19] وقوله: " الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور"[20].
ومن الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[21].

فدلت الآيات والحديث على أن الخطاب إن صح الفهم ـ موجه إلى كافة المسلمين ـ فالكل مطالب في حدود طاقته بمحاربة المنكر، والعمل على إزالته حتى تنتشر الأخلاق الكريمة، وتقهر الأخلاق الذميمة فلا يستفحل الفساد وتحق اللعنة على العباد كما حقت على بني إسرائيل: " لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون"[22].

هذا ولم تفرط دولة الإسلام في أداء هذا الواجب في يوم من الأيام، بل وأقامت له ولاية خاصة سميت بولاية الحسبة[23].

وقد نبه صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة الحفاظ عليه، وحذر من التقاعس في أدائه، وصور حال الأمة وهي بعيدة عنه بقوله: " كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسد شبانكم وتركتم جهادكم؟ "

قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟

قال: " نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون".

قالوا: وما أشد منه يا رسوله الله؟

قال: " كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر؟

قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟

قال: " نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون"

قالوا: وما أشد منه؟

قال: " كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا؟"

قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟

قال: نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون؟ "

قالوا: وما أشد منه.

قال: " كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟"

قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله ؟

قال: نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون؟ يقول تعالى: بي حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم حيران"[24]

وقد أورد الماوردي ملخصا لهذا الواجب، بين من خلاله المنكرات التي يجب محاربتها فقال: " ومما يشتمل الخاصة والعامة ما ذكرناه من الحمل على ظاهر الشريعة والحث عليها والترغيب فيها وإظهار كرامة المستدينين عليه

وجلالتهم عنده، والمنع من إظهار الفساد والفجور من الميسر وشرب الخمور وإظهار السكر والفسوق والقذف والنياحات الفاحشة على الموتى، وكل محرم ومكروه في الدين، وما يدخل في أبواب الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[25].

فاين أنت يا أمة الإسلام من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي أضحى عندك تراثا نسيا منسيا، فطغى نساؤك، وفسق شبابك، وتركت الجهاد، والمعروف عندك صار منكرا، والمنكر صار معروفا، ومازادك مأساة إلا أعداؤك المتربصين بك الذين أوهموك ــ تلبيس ــ بأن التبرج والفسوق والانحلال وخلع الحجاب، ومساواة الرجل والمرأة في التعدد والميراث، وما إلى ذلك من الحقوق والحريات ماهي إلا علامات تحضر وتمدن لم يعد الإسلام صالحا لاستيعابها، والأغرب في كل هذا أن تجد هذه الدعوات والتلبيسات أبواقا لها حتى من المسلمين في بلاد الإسلام. فعمت البصائر والأبصار، ونسيت وتناست حقيقة الحضارة الغربية وما تنطوي عليه من مخاطر جمة يجب الاحتياط لها. وصدق من قال: جاء الإسلام غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء.

ثالثا: جانب التشريع

يتوفر الإسلام على منظومة تشريعية ما عرفت لها البشرية في تاريخها من مثيل، جمعت بين أمور الدين وأمور الدنيا، فما تركت قضية من القضايا إلا وأحصتها، وبينت حكم الشرع فيها، سواء ما كان منها متعلقا بالعقيدة، أو العبادة، أو الحكم، أو الاجتماع، أو المال، أو السلم أو الحرب أو العلم، أو التعليم، أو الثقافة إلى آخر ما يمكن أن يخطر على تصور الإنسان من شؤونه"[26]. ويكفي للدلالة على صدق هذا الطرح قوله المولى جل وعلا: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء)[27] وقوله تعالى: (وما فرطنا في الكتاب من شيء)[28] وقوله صلى الله عليه وسلم: " تركت فيكم أمرين لن تظلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه"[29] وقوله صلى الله عليه وسلم: " تركت فيكم امرين لن تظلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم ماعرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ"[30].

وإذا كانت الشريعة قد بينت هذه الأحكام بدقة وإحكام، فإنه بالمقابل أوجبت على المسلمين اتباعها، وحذرتهم من مخالفتها والاحتكام إلى غيرها قال تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[31] وقوله: (ومن لم يحكم بما انزل

الله فأولئك هم الظالمون)[32] وقوله: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)[33]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " دعوني ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"[34]

غير أن الذي حدث، أن المسلمين وعوض التزامهم أحكام منظومتهم، لجأوا إلى القوانين الوضعية التي هي في أساسها مستمدة من غير الشريعة الإسلامية، وتعكس نظريات ونظم متعارضة ومتناقضة فيما بين رأسمالية، واشتراكية، وقومية ونحوها، الأمر الذي أورثهم بعدا عن شريعتهم وصراعا وتمزقا في وحدتهم. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا ذراعا حتى لو دخلوا حجر ضب تبعتموهم"، قال الراوي " قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال " فمن "[35] ويقول اللورد كتشنز " ونحن ما صلحت لنا هذه القوانين إلا بعد تربية تدريجية في عدة قرون كنا نغير فيها ونبدل بحسب اختلاف الأحوال، وإن عندكم ـ يعني المسلمين ـ شريعة عادلة موافقة لعقائدكم ولأحوالكم الاجتماعية، فالواجب على الدولة أن تعمل بها وتترك قوانين أوروبا فتقيم العدل وتحفظ الأمن وتستغل بلادها الخصبة وعندي أنها لا تصلح بغير هذا ..."[36]

والذي زاد المسلمين بعدا عن شريعتهم السموم التي ترد إليهم من أعدائهم، والتي كانت ولا زالت تصف الإسلام بالجمود والرجعية[37]، وعدم القدرة على مواكبة المسير الحضاري، ناهيك عن القول بأن هناك من العقوبات التي حوتها كقطع اليد، وجلد شارب الخمر، ورجم الزاني المحصن لم تعد تستجيب لروح العصر ويجب استبعادها[38].

والآن، إن لنا أن نتساءل: هل من الخير لنا أن نسير وراء أنظمة قانونية صاغتها أيادي بشرية ـ هذه الأيادي هي نفسها اليوم تقر بقصور هذه الأنظمة القانونية ـ فيها من المادة السامة ما يكفي لقتل أجيال ومحوها من الوجود. أم نسير في الطريق الذي اختاره لنا المولى الخبير سبحانه وتعالى؟ وهل من المصلحة لنا كمسلمين أن ننهل من أنظمة غيرنا، ناسين أو متناسين أن لنا معين الله الصافي وتشريعه الخالد الذي يغنينا عن الاقتباس إلى يوم الدين؟

رابعا: جانب التربية والتعليم

اهتمت الإنسانية منذ قديم العصور على اختلاف شعوبها وحضاراتها بالطرق والوسائل الكفيلة بتحقيق تربية وتعليم وثقافة أكثر فعالية، لإعداد جيل صالح له من المقومات والخصائص النفسية والاجتماعية والبدنية والعلمية، ما يكفل له القدرة على إعادة صنع الحياة على الأرض.

وقد ظل إعداد الجيل الصالح هدفا تربويا تسعى إليه جميع النظم التربوية على اختلاف مفاهيمها ومبادئها، والأسس والعقائد التي تعتمد عليها، فالأنظمة جميعها ترسم هذا الهدف، وتسعى إليه وتعمل على تحقيقه. ومن الأنظمة التي سعت إلى تحقيق هذا الهدف، النظام الإسلامي الذي يعد الرائد في هذا المجال بدون منازع، فكان المنهج التربوي فيه منهجا كليا أحاط بكل صغيرة وكبيرة، ومستقى من وحي الله، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وضع لكل عنصر من عناصر التربية قواعده وضوابطه ومناهجه التي تمكن من الوصول إلى إعداد جيل يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، والالتزام بأخلاق الإسلام وقيمه ومبادئه. والإيمان بالتكريم الإلهي للإنسانية الذي قرره القرآن الكريم[39].

ورغم أن الإسلام جاء بمنهج متكامل يغني عن مد اليد والاقتباس من الغير، ورغم التحذيرات التي أطلقها علماء المسلمين من استيراد المناهج التربوية والتعليمية من الغرب لما يترتب عليها من مشاكل وانحرافات في الدين، إلا أن المسلمين أداروا ظهرانيهم، وركنوا إلى مناهج غيرهم فكانت وبالا عليهم وعلى أجيالهم، وألسنتهم ودينهم وحتى أنفسهم. وأحسن قولا من قال: " إياك أن تكون أمنا من العلم الذي تدرسه فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها"[40]، ليأتي بعد ذلك ويصور التعليم بالحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي فيقول:" إن التعلم هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي ثم يكونها كما يشاء، إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيرا من أي مادة كيميائية، وهو الذي يستطيع أن يحول جبلا شامخا إلى كومة تراب"[41]. ولك أن تقدر بعد ذلك صدق هذا الحديث، وما فعلته وما تزال تفعله الأنظمة التربوية والتعليمية الغربية بالمسلمين، ويا ليتها توقفت عند هذا الحد، بل لا زال أصحابها ينعقون ويؤكدون على ضرورة انسلاخ أبناء هذه الأمة من جلدتهم، ولباس جلدة غيرهم، ويكفيك أن تقف على أحد بنود التغيير في مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي تعرضه الولايات المتحدة الأمريكية هذه الأيام على أمة الإسلام والذي من بين بنوده ضرورة تغيير المناهج التربوية والتعليمية.

وإذا كانت الدول العلمانية، والشيوعية ترفض استيراد العلوم والآداب التي نشأت في أحضان عقائد ومفاهيم لا تؤمن بها، فلماذا تحاول فرضها على غيرها، ولماذا تتهافت وتهلل أمة الإسلام لها؟ أم هي من قبيل ولع المغلوب بالغالب في شعاره وزيه، ونحلته وسائر أحواله كم يقولون.

وفي الأخير إليك بعض آراء من فهم ووعى خطورة المناهج التربوية والتعليمية فأبى اعتناقها واعتمادها، يقول أحد أساتذة التربية في أمريكا الدكتور CONANT : " إن عملية التربية ليست عملية تعاط وبيع وشراء، وليست بضاعة تصدر للخارج، أو تستورد في الداخل، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانجليزية والأوروبية إلى بلادنا الأمريكية[42] .

ويقول أحد العلماء الروس GOVERN " إن العلم الروسي ليس قسما من أقسام العلم العالمي إنه قسم منفصل قائم بذاته، يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف، إن سمة العلم السوفييتي الأساسية: انه قائم على فلسفة واضحة متميزة..."[43].

خامسا: جانب المال[44].

لاشك في أن للمال أهمية في حياة الأمم والدول والأفراد، وأن توفيره يعد من أهم عوامل الاستقرار في المجتمع، إذ به تتوفر أسباب القوة، وبه تتحقق وسائل الدفاع، وبه يتزأ كل ما من شأنه أن يخل بأمن المجتمع واستقراره. ورحم الله سيدنا عمر عندما قال: "... وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث، أن يؤخذ بالحق، ويعطى في الحق ويمنع من الباطل..."[45] ويتابع ليقول: "... ولكم علي أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم علي أن لا أجتبي شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه، ولكم علي أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم"[46].

ذلك هو التوجيه العصامي، وتلك هي القواعد التي حكمت السياسة المالية عند المسلمين[47]. فالمال لا يؤخذ إلا بحق، ولا يعطى إلا بحق، ولا يصرف في الباطل. فمصدر جبايته معلوم، وجهة صرفه كذلك. يقول الماوردي رحمه الله: "... والذي يلزمه من أمور العامة ـ ويعني الخليفة ـ عشرة أشياء... والسابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف، والثامن: تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه

في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير. والتاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء في ما يفوض إليهم من الأعمال ويكل إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة... [48].

بهذه الضوابط وبهذا الضبط، تحققت العدالة ــ وأعني بالضبط، الجباية في الحق والتوزيع في المستحق ــ وبهذه الضوابط وبهذا الضبط تحقق التقدم والرقي والازدهار. فما الذي جعل المسلمين اليوم ــ في جانب المال ــ على غير ما كان يجب أن يكون عليه؟

لقد غيب المسلمون ــ اليوم ــ الإسلام من حياتهم في جميع جوانبهـــا ــ إلا في القليل منها ــ وغيبوا بالتبعية النظرية الاقتصادية الإسلامية عن التطبيق. بدعوى ــ يتلبس من الغرب ــ أن هذه النظرية وإن صلحت للتطبيق في فترة من فترات الزمن، فإنها لم تعد كذلك. فهي وفضلا عن كونها لم تعد تستجيب لطموحات المسلمين، فإنها لا تتماشى والظروف الاقتصادية في العصر الحديث.

والغريب في أمر المسلمين أنهم ورغم علمهم بأن داءهم من أعدائهم، وأن دواءهم في دينهم ــ أي أنهم يعرفون أسباب الداء ومنبع الدواء ــ إلا أنهم فضلوا الركون إلى الداء وترك الدواء وهكذا أضحى اقتصادهم، كاقتصاد غيرهم[49]، احتكاريا، ربويا تسلطيا بل ويفوقه تميزا بالتبعية والتخلف ، ناهيك عن الفقر المدقع الذي تعيشه الفئة الغالبة من المسلمين.

سادسا: جانب الإعلام

إن أي إصلاح اجتماعي، أو رقي حضاري، لا يمكن أن يبلغ أو يسود إلا بالإعلام.

والإعلام على قدر أهميته على قدر خطورته، فهو سيف ذو حدين كما يقولون. إذا ما أحسن استعماله حقق الغاية المثلى من وجوده، وإذا ما أسيء استعماله جنى الخراب والدمار على الناس في دينهم ودنياهم.

وقد عنى الإسلام بهذه الوسيلة، أيما عناية، فأحكم تنظيمها وفق المقاصد الشرعية. فحث المسلمين على استعمالها فيما فيه من عائدات خير عليهم. وحذرهم من الوقوع في الكذب، والوشاية، والتشهير. كما حثهم على الصدق، والدقة في الخبر والأمانة والتثبت منه. ويكفيك تدليلا قول المولى عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)[50] وقوله: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم

ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم)[51].

وقوله صلى الله عليه وسلم في شأن الصدق والحث على إتيانه، والكذب والتحذير من احترافه: " إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا"[52]. بل وجعل الكذب من آية المنافق فقال: " آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان"[53].

ولقد فهم المسلمون الأوائل هذا التوجيه، فعملوا على تسخيره ـ أي الإعلام ـ لنشر عقيدة التوحيد، والدعوة إلى عبودية الواحد الأحد، بتحرير العباد من كل إكراه بشري، وترقية اهتمامات الناس، والسمو بتفكيرهم وسلوكياتهم، وإشاعة الثقافة المتشبعة بروح الإسلام.

وإذا كان هذا حال المسلمين الأوائل مع الإعلام على بساطة وسائله، فما الذي يمنع المسلمين اليوم حذو حذو هؤلاء؟ ومن ثم العمل على توجيهه الى الإهتمام بشؤون المسلمين، وتبني قضاياهم، وإبرازها وتحليلها وعرض انسب الحلول لها بما يتفق ومقاصد الشرع بعيدا عن توجيه الأعداء وتضليلهم. وبيان أن الإسلام ليس هو بالصورة التي يظهره بها أعداءه، ولا هو دين عنف، وإنما هو دين الرحمة والسلم والعدل وهو الدين الذي أراده الله أن يكون الخاتم لكل الرسالات السماوية.

الخاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى أنه إذا كانت هذه بعض الجوانب التي اعتراها تقصير المسلمين من جهة، والتلبيس من الغربيين من جهة أخرى. وهي في حاجة إلى العودة بها إلى موضعها، حيث كانت في بداية عهد الرسالة لينجلي المظهر الحقيقي للإسلام. فإن الذي على المسلمين القيام به، هو تهيئة البيئة أو التربة التي بها يصلح الغرس أو النبت ليأتي أكله ذلك بـــ:

1 ـ تمكين علماء الأمة ومفكريها من:

أ ــ أداء الدور المنوط بهم في توجيه حركة الحياة على مختلف الأصعدة ــ العقدية، السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، التربوية... الخ ــ

ب ــ تنقية العقيدة مما علق بها من شوائب زائفة وسهام قاتلة، ووضع منهج علمي سليم للدعوة إلى توحيد الله حتى لا يعتلي كل من هب ودب هذه المرتبة.

جـ ــ تحرير واقع الأمة من النظريات والنظم الوافدة التي تتعارض ومضمون الشريعة.

د ــ إعادة النظر في المناهج التربوية وبرامجها بما يتفق وروح الشريعة.

هـ ــ العمل على مواجهة الغزو الفكري والثقافي وتقديم البديل الإسلامي.

و ــ العمل على تنشيط حركة الاجتهاد الجماعي والالتزام بما ينتهي إليه من أحكام.

2 ــ عمل أولي الأمر على الأخذ بأسباب الوحدة، وتجنب أسباب الفرقة.

3 ــ الالتزام بإعمال وتطبيق أحكام الشريعة في مختلف جوانب الحياة.

4 ــ إنشاء وزارة متخصصة تسخر لها جميع الإمكانيات المادية والبشرية للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع الدول الإسلامية.

5 ــ العمل على الأخذ بالنظرية الاقتصادية الإسلامية في جميع جوانبها، مع الأخذ بأسباب التكامل والتعاون والتنسيق بين اقتصاديات الدول الإسلامية، ومحاولة التخلص من التبعية الاقتصادية العالمية.

6 ــ تحرير وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية من كل العناصر المشبوهة والعاملة ضد توجهات الأمة، وكذا مختلف مظاهر الانحراف والانحلال مع تقديم بديل إعلامي إسلامي ناجع.

المصادر والمراجع المعتمد في البحث:

ــ القرآن الكريم

ــ إبراهيم إيمان " أصول الإعلام الإسلامي" دار الفكر العربي، القاهرة.

ــ البخاري " صحيح البخاري" تحقيق الشيخ قاسم الشماعي، دار القلم، بيروت، 1987.

ــ الإمام أحمد " مسند الإمام أحمد " دار النشر، قرطبة، مصر.

ــ أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " دار المعرفة، بيروت، 1983.

ـ ابن خلدون " المقدمة " دار القلم، بيروت، ط7، 1989.
ـ الدكتور شوقي عبده الساهي "الفكر الإسلامي والإدارة المالية للدولة" مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1 ، 1991.
ـ طاهر القاسمي " نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي" دار النفائس، بيروت، ط2، 1980.
ـ الدكتور عبد الحميد متولي " الشريعة الإسلامية كمصدر أساسي للتشريع" منشأة المعارف، الاسكندرية، ط2.
ـ عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني " غزو في الصميم" دار القلم 1982.
ـ ابن قيم الجوزية " الطرق الحكمية في السياسة الشرعية" تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ ابن ماجة " سنن ابن ماجة" تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
ـ الإمام مالك " الموطأ " تحقيق فؤاد عبد الرحمن، دار احياء التراث العربي، مصر.
ـ مالك بن نبي " المسلم في عالم الاقتصاد " دار الفكر، دمشق.
ـ الماوردي " الأحكام السلطانية والولايات الدينية" دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ " نصيحة الملوك " تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، الكويت ط1 ، 1983.
ـ محمد أبو زهرة، " تنظيم الإسلام للمجتمع" دار الفكر العربي، القاهرة.
ـ الدكتور محمد أحمد مفتي، الدكتور سامي صالح الوكيل " النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية" (دراسة مقارنة) مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الدوحة، ط1.
ـ الشيخ محمد رشيد رضا " الخلافة " الزهراء للإعلام العربي، 1994.
ـ الدكتور محمد سليم العوا " النظام السياسي للدولة الإسلامية" دار الشروق القاهرة، ط1، سنة 1989.
ـ محمد سيد محمد " المؤسسة الاعلامية في الإسلام" المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط2، 1986.
ـ محمد الصادق عفيفي " المجتمع الإسلامي وفلسفته المالية والاقتصادية" مكتبة الخانجي القاهرة، ط1.

266 ـــ

الهوامش :

---

[1] ـــ سورة المائدة الآية: 3.

[2] ـــ سورة النحل الآية: 89.

[3] ـــ سورة آل عمران الآية : 110.

[4] ـــ سورة النساء الآية: 135.

[5] ـــ سورة سبأ الآية: 28 .

[6] ـــ سورة المائدة الآية: 67.

[7] ـــ سورة المائدة الآية: 35.

[8] ـــ عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بداية عهد الرسالة، على إرسال الرسل إلى ملوك ورؤساء الدول المجاورة للدولة الفتية، داعيا إياهم إلى عبادة الله وتوحيده، ومن الذين كاتبهم، قيصر الروم، كسرى ملك الفرس، النجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك الاسكندرية، (في هذا راجع: ظافر القاسمي، "نظام الحكم في الشريعة التاريخ الإسلامي: الكتاب الأول، دار النفائس بيروت ط2، 1980، ص50.

[9] ـــ قال تعالى: " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " سورة النحل الآية 125.

[10] ـــ عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله". (راجع الحديث في : صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة، م2، ج4، حديث رقم 113.

[11] ـــ د/محمد عبد الله الصوفي، د/ عبد الغني قاسم" أهم التحديات المستقبلية التي ستواجه أمتنا ودور التربية في حلها" دار البشير، مؤسسة الرسالة، بيروت ط1، 1996، ص15.

[12] ـــ د/ محمد عبد الله الصوفين د/عبد الغني قاسم، م س، ص16، 17.

[13] ـــ الشيخ محمد الغزالي "صيحة تحذير من دعاة التنصير" دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 1991 ص 119.

[14] ـ المرجع نفسه، ص 123.

[15] ـ المرجع نفسه ، ص 118 .

[16] ـ محمد الصادق عفيفي " المجتمع الإسلامي وفلسفته المالية والاقتصادية " مكتبة الخانجي، القاهرة، ج2 ، 1980، ص 20.

[17] ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[18] ـ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر راجع:

ـ محمد أبو زهرة " تنظيم الإسلام للمجتمع" دار الفكر العربي، القاهرة، ص 23، 24.

ـ د/ محمد سليم العوا " النظام السياسي للدولة الإسلامية" دار الشروق، القاهرة ط 1، 1989، ص 155 وما بعدها.

ـ د/ محمد أحمد مفتي ، د/ ساسي صالح الوكيل " النظرية السياسية الاسلامية في حقوق الانسان الشرعية" دراسة مقارنة، مؤسسة الخليج للنشر والطباعة، الدوحة، ط1، ص89.

[19] ـ سورة آل عمران الآية 104.

[20] ـ سورة الحج الآية 41.

[21] ـ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ج1، ح رقم 49.

ـ سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج2، ح رقم 4013.

[22] ـ سورة المائدة الآية 78، 79.

[23] ـ يمكنك في ولاية الحسبة مراجعة:

ـ ابن قيم الجوزية " الطرق الحكمية في السياسة الشرعية" تحقيق محمد حامد دار الكتب العلمية، بيروت ص 338 وما بعدها.

ـ الماوردي " الأحكام السلطانية والولايات الدينية" دار الكتب العلمية، بيروت ص 299 وما بعدها.

ـ ابن خلدون، المقدمة دار القلم بيروت ، ط7. 1989 ص 255 و 256.

[24] ـ أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " دار المعرفة، بيروت، ج2، ط 1983، ص 308 و 309.

[25] ـ الماوردي " نصيحة الملوك" تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1983، ص 200.

[26] ـ مع ملاحظة أن ما لا يعرف من كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم صراحة يعرف استنباطا بواسطة مجتهدي الأمة.

[27] ـ سورة النحل الآية 89.

[28] ـ سورة الأنعام : 38.

[29] ـ موطأ الامام مالك ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر ، ج2 رقم الحديث 1594.

[30] ـ سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ج1، حديث رقم: 48.

ـ مسند الإمام احمد، دار النشر قرطبة، مصر، ج4، حديث رقم 1718.

[31] ـ سورة المائدة الآية 44.

[32] ـ سورة المائدة الآية 45.

[33] ـ سورة المائدة الآية 47.

[34] ـ صحيح البخاري، المصدر السابق، حديث رقم 2095.
[35] ـ المصدر نفسه، ح رقم 2126.
[36] ـ الشيخ محمد رشيد رضا، الخلافة، الزهراء للإعلام العربي، ط 1994، ص 133.
[37] ـ د/ عبد الحميد متولي " الشريعة الإسلامية كمصدر أساسي للدستور " منشأة المعارف، الإسكندرية ط 2، ص 26، وما بعدها.
[38] ـ المرجع نفسه، ص 45، وما بعدها.
[39] ـ راجع في هذا: عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني " غزو في الصميم" دار القلم 1982، ص 16.
ـ محمد بن حسن محمد بن عقيل، الانتقاص عن الغرب ضوابطه وحدوده أسبابه وآثاره" مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت العدد 29 أغسطس 96.
[40] ـ أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، دار القلم ص 169.
[41] ـ المرجع والصفحة نفسها.
[42] ـ عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، المرجع السابق، ص 18.
[43] ـ المرجع والصفحة نفسها.
[44] ـ نعني بالمال، الاقتصاد بالمفهوم الاصطلاحي الحديث.
[45] ـ أبو يوسف " الخراج " ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ص 117.
[46] ـ نفس المصدر والصفحة.
[47] ـ راجع في هذا الموضوع: د. شوقي عبده الساهي " الفكر الإسلامي والإدارة المالية للدولة " مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1991.
[48] ـ الماوردي، "الأحكام السلطانية والولايات الدينية " المصدر السابق، ص 18.
[49] ـ راجع :
ـ مالك بن نبي " المسلم في عالم الاقتصاد " دار الفكر، دمشق.
ـ يوسف كمال " الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة دار الوفاء، المنصورة، ط 1، 1986.
[50] ـ سورة الحجرات الآية: 6.
[51] ـ سورة الحجرات الآية: 12.
[52] ـ صحيح البخاري، كتاب الأدب باب قوله تعالى: (يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين). د4، ج8، حديث رقم 972.
[53] ـ المصدر نفسه، حديث رقم 973.